د. محمد عبد الله سليمان

وقفات

على أبواب الغواني

الجزء الأول

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفات على أبواب القوافي

(الجزء الأول)

دكتور: محمد عبد الله سليمان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إهـــــــــداء

- إلى من ضحوا معي بالأوقات المستحقة لهم

من أجل إنجاز هذا الكتاب، زوجتي وأبنائي.

- إلى كل عاشق للشعر العربي.
- إلى كل صديق وفي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه وهداه إلى يوم الدين. أما بعد.

فعنوان هذا الكتاب اقتبسته من بيت الشاعر سُويد بن كِراع :

أَبيتُ بِأَبوابِ القَوافي كَأَنَّما أُصادي بِها سِرباً مِنَ الوَحشِ نُزَّعا

فأوحى إلي بكتابة هذه السلسلة من المقالات التي تقوم فكرتها علي الوقوف عند بيت من الشعر، والنظر إليه من زوايا متعددة بحسب ما تناوله العلماء من جهة النحو والصرف والبلاغة والصورة، كما نستعرض آراء النقاد حوله ، والنظر إلى النواحي الجمالية والعناصر الفنية من حيث والخيال والعاطفة والأسلوب والفكر.

والبيت الشعري عند العروضيين لابد أن يكون مستقلا بذاته في المعنى فإذا احتاج إلى غيره ليكتمل معناه عُدّ ذلك عيبا من عيوب الشعر.

وكان للبيت الشعري خطره عند العرب قديما، يرفع أقواما ، ويحط آخرين ، وتسير به الركبان، ويرويه الرواة في المحافل والأسواق والمواسم.

والأبيات التي دار حولها لقط وجدل بين النقاد قديما وحديثا لا حصر لها ، وهذا ما يوقع علي عاتقي مسؤولية اختيار الأبيات ، والكشف عما دار حولها ، والنظر إليها من رؤيتي الخاصة.

لن أهتم بأي ترتيبات في اختيار الأبيات بقدر ما أنني سأهتم بالبيت نفسه بغض النظر عن شاعره أو عصره ، ولكن بقدر ما أثار من حفيظة اللغويين والنقاد.

المؤلف

الأحساء 2017م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوقفة الأولى

مع أبي تمام

أول بيت سأبدأ به للطائي حبيب بن أوس (أبو تمام) وهو شاعر مثير للجدل اتخذ من البديع مذهبا له فأنكر عليه نقاد عصره ذلك لأنهم لم يألفوه وعدوه دخيلا على الشعر العربي. يقول أبو تمام من بحر الكامل:

لا تَسقِني ماءَ المُلامِ فَإِنَّني صَبٌّ قَدِ اِستَعذَبتُ ماءَ بُكائي

وقد استهجن القزويني في كتابه الايضاح في علوم البلاغة قول الطائي: فقال " وأما قول أبي تمام فليس له فيه دليل لجواز أن يكون أبو تمام شبه الملام لظرف الشراب لاشتماله على ما يكرهه الملوم كما أن الظرف قد يشتمل على أن يكرره الشارب لبشاعته أو مرارته فتكون التخييلية في قوله تابعة للمكني عنها أو بالماء نفسه لأن اللوم قد يسكن حرارة الغرام كما أن الماء يسكن غليل الأوام فيكون تشبيهاً على حد لجين الماء فيما مر لا استعارة، والاستهجان على الوجهين لأنه كان ينبغي له أن يشبهه بظرف شراب مكروه أو بشراب مكروه ولهذا لم يستهجن نحو قولهم أغلظت لفلان القول، وجرعته كأساً مرة، أو سقيته أمر من العلقم " يقول أسامة بن منقذ في كتابه البديع في نقد الشعر وهو يتحدث عن الاستعارات " ولقد أحسن أبو تمام حين قال ":

لا تَسقِني ماءَ المُلامِ فَإِنَّني صَبٌّ قَدِ اِستَعذَبتُ ماءَ بُكائي

وقد روي أن بعض أهل المجانة أرسل إلى أبي تمام قارورةً وقال ابعث في هذه شيئاً من ماء الملام، فأرسل إليه أبو تمام، وقال: إذا بعثت إلي ريشة من جناح الذل بعثت إليك شيئاً من ماء الملام." مشيرا إلى قول الله تعالى (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً)سورة الإسراء ، الآية 24.

يقول الآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبحتري معلقا على البيت السابق: " فقد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عيب، وليس بعيب عندي؛ لأنه لما أراد أن يقول " قد استعذبت ماء بكائي " جعل للملام ماء؛ ليقابل ماء بماءٍ وإن لم يكن للملام ماء على الحقيقة ، كما قال الله عز وجل: (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها)سورة الشورى ، الآية 40 ، ومعلوم أن الثانية ليست بسيئة، وإنما هي جزاء السيئة؛ وكذلك: (إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم)والفعل الثاني ليس بسخريةٍ، ومثل هذا في الشعر والكلام كثير مستعمل "

ويقول ابن الأثير في كتابه المثل السائر وهو يتحدث عن أبي تمام "وقد عيب عليه قوله:

لا تَسقِني ماءَ المُلامِ فَإِنَّني صَبٌّ قَدِ اِستَعذَبتُ ماءَ بُكائي

وقيل إنه جعل للملام ماء، وذلك تشبيه بعيد، وما بهذا التشبيه عندي من بأس، بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم، وهو قريب من وجه بعيد من وجه: أما مناسب قربه فهو أن الملام هو القول الذي يعنف به الملوم لأمر جناه، وذاك مختصٌ بالسمع، فنقله أبو تمام إلى السقيا التي هي مختصة بالحلق، كأنه قال: لا تذقني الملام، ولو تهيأ له ذلك مع وزن الشعر لكان تشبيهاً حسناً، لكنه جاء بذكر الماء فحط من درجته شيئاً ولما كان السمع يتجرع الملام أولاً كتجرع الحلق الماء صار كأنه شبيه به، وهو تشبيه معنى بصورة، وأما سبب بعد هذا التشبيه فهو أن الماء مستلذ، والملام مستكره، فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه، فهذا التشبيه إن بعد من وجه فقرب من وجه فيغفر هذا لهذا، ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم. وقد روي وهو رواية ضعيفة أن بعض أهل المجانة أرسل إلى أبي تمام قارورةً وقال ابعث في هذه شيئاً من ماء الملام، فأرسل إليه أبو تمام، وقال: إذا بعثت إلي ريشة من جناح الذل بعثت إليك شيئاً من ماء الملام وما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين، وذاك أن الطائر إذا وهن أو تعب بسط جناحه وخفضه وألقى نفسه على الأرض وللإنسان أيضاً جناح فإن يديه جناحاه وإذا خضع واستكان طأطأ من رأسه، وخفض من يديه، فحسن عند ذلك جعل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجناح للذل، وصار تشبيهاً مناسباً، وأما الماء للملام فليس كذلك في مناسبة التشبيه.

وجاء في كتاب ابن سنان الخفاجي سر الفصاحة قوله : " وما زال الناس ينكرون قول أبي تمام:

لا تَسقِني ماءَ المُلامِ فَإِنَّني صَبٌّ قَدِ اِستَعذَبتُ ماءَ بُكائي

ويحكون الحكاية المعروفة عن سائل سأل أبا تمام أن ينفذ له في إناء شيئاً من ماء الملام، وربما نسبها بعض الرواة إلى عبد الصمد بن المعذل. وقد تصرف أصحاب أبي تمام في التأويل له فقال بعضهم إن أبا تمام أبكاه الملام وهو يبكى على الحقيقة فتلك الدموع هي ماء الملام، وهذا الاعتذار فاسد لأن أبا تمام قال: –قد استعذبت ماء بكائي– وإذا كان ماء الملام هو ماء بكائه فكيف يكون مستعفياً منه مستعذباً له. وقال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: كيف يعاب أبو تمام إذا قال ماء الملام؟ وهم يقولون كلام كثير الماء، وقال يونس بن حبيب في تقديم الأخطل. لأنه أكثرهم ماء شعر، ويقولون ماء الصبابة، وماء الهوى، يريدون الدمع. وقال ذو الرمة:

أأن توهمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وقالوا: ماء الشباب. قال أبو العتاهية:

ظبى عليه من الملاحة ماء الشباب يجول فى وجناته

وهو من قول عمر بن أبي ربيعة:

وهي مكنونة تحير منها في أديم الخدين ماء الشباب

فما يكون إذا استعار أبو تمام من هذا كله حرفاً فجاء به في صدر بيته لما قال في آخره –إنني صب قد استعذبت ماء بكائي– قال في أوله: لا تسقني ماء الملام، وقد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوى معناه. قال الله جل وعز "وجزاء سيئة سيئة مثلها" فالسيئة الثانية ليست بسيئة لأنها مجازاة ولكنه لما قال وجزاء سيئة سيئة حمل اللفظ على اللفظ وكذلك: (فبشرهم بعذاب أليم)قال فبشر هؤلاء بالجنة ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبشر هؤلاء بالعذاب والبشارة إنما تكون في الخير لا في الشر. وعلق ابن سنان معترضا على ذلك بقوله : " هذه جملة ما قاله أبو بكر، وهي غير لائقة بمثله من أهل العلم بالشعر لأن قولهم كلام كثير الماء وماء الشباب وقول يونس إن الأخطل أكثرهم ماء شعر، إنما المراد به الرونق كما يقال ثوب له ماء ويقصد بذلك رونقه، ولا يحسن أن يقال ما شربت أعذب من ماء هذا الثوب كما لا يحمل أن يقال ما شربت أعذب من ماء هذه القصيدة؛ لأن هذا القول مخصوص بحقيقة الماء لا بماء هو مستعار له وأبو تمام بقوله: لا تسقني ما الملام ذاهب عن الوجه على كل حال، ثم لا يجوز أن يريد هنا بالماء بأنها الرونق لأن الملام لا يوصف بذلك وإنما يذم ويستقبح لا يحمد ويستحسن. وأبو تمام القائل:

عذلاً شبيهاً بالجنون كأنما قرأت به الورهاء شطر كتاب

فبهذا وأمثاله ينعت الملام لا بالماء الذي هو الرونق والطلاوة، فقد بان فساد هذا الاعتذار من هذا النحو، وأما ماء الصبابة وماء الهوى فقد بين أبو بكر أنهم يريدون به الدمع فكيف يقول إنه استعارة والدمع ماء حقيقي بلا خلاف، وعلى أي وجه يحمل ماء الملام في الاستعارة على ماء الدمع وهو حقيقة؟ وأما مقابلة اللفظ باللفظ واستشهاده بالآيات المذكورة فقد ذكرنا الكلام عليه فيما تقدم وبينا أن هذا مجاز ولا يقاس عليه ولا يحسن منا المقابلة في موضع يعترضنا فيه فساد في المعنى أو خلفي اللفظ كهذه الاستعارة أو ما يجرى مجراها كما لا يحسن بنا غير ذلك في المجاز إذا أدى إلى اللبس والإشكال.

هذا بعض ما دار بين النقاد والعلماء حول هذا البيت الشعري بين القبول والرفض وفي تقديرنا أن الشعر لا يكتب له الخلود والبقاء إلا إذا كان مثيرا للجدل يكتنفه الغموض المحبب الذي يعطي للنقاد فرصة التأويل والحوار.

كثير من الأشعار أصبحت في طي النسيان لأنها تحمل بذور فنائها ، وأجمل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشعر الذي يدعو إلي بذل الجهد، وكد الفكر، وامعان النظر، ولا يعطيك معانيه إلا بعد تمنع منه.

وفي تقديري أن تعبير ماء الملام فيه بعد شعري عميق وابتكار وتجديد في اللغة قد يعد منكرا عند بعض العلماء الذين نحترم رأيهم ونقدره ولكن يبقى البعد الخيالي قائما، وما قيمة الشعر إذا افتقد البعد الخيالي والتجديد اللغوي والابتكار في التعبير ؟ ثم إن نزعة حبيب بن أوس الطائي للاستعارات البعيدة ، ولغرابة التشبيه والغموض في المعنى مع تأثره بالفلسفة هي النقاط المثيرة في شعره التي جعلت النقاد يتناولونه بالدراسة والبحث علي مدار تاريخنا الأدبي والنقدي ، وسيظلون يتناولونه على مر الأيام لأن في شعره عمق يدعو إلى البحث والتأمل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوقفة الثانية

مع حسان بن ثابت رضي الله عنه

نقف هذه المرة علي أعتاب باب عتيق من أبواب القوافي باب المخضرم حسان بن ثابت رضي الله عنه ، حيث يقول :

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُون مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاء

وقد اخترنا هذا البيت من قصيدة عصماء في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجاء المشركين وردت في صحيح مسلم ، ج 16 ، ص 226 ، رقم الحديث 6550

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ : عَلِىُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ أَنْبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ الصَّفَّارُ حَدَّثَنَا ابْنُ مِلْحَانَ حَدَّثَنِى يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ خَالِدٍ يَعْنِى ابْنَ يَزِيدَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِى هِلاَلٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِى سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ :« اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ النَّبْلِ ». فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ :« اهْجُ ». فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ حَسَّانُ :« قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ ». ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِى فَرْىَ الأَدِيمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- :« لاَ تَعْجَلْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا وَإِنَّ لِى فِيهِمْ نَسَبًا حَتَّى يُخْلَصَ لَكَ نَسَبِى ». فَأَتَاهُ حَسَّانُ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ مَحَضَ لِى نَسَبَكَ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ لِحَسَّانَ :« إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لاَ يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ». وَقَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ :« هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى ». فَقَالَ حَسَّانُ :

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْه وَعِنْدَ اللَّهِ في ذَاكَ الْجَزَاء
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا رَسُولَ اللَّهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاء
فَإِنَّ أَبِى وَوَالِدَهُ وعرضى لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وقَاء
تَكِلْتُ بُنَيَّتِى إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاء
يُنَازِعْنَ الأَسِنَّةَ مُشْرَعَاتٍ عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاء
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُر النِّسَاء
فَإِنْ أَعْرَضْتُمُ عَنَّا اعْتَمَرْنَا وَكَانَ الفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاء
وَإِلاَّ فَاصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْم يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاء
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاء
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ جُنْدً هُمُ الأَنْصَارُ عَزْمَتُهَا اللِّقَاء
لَنَا فِى كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدّ سِبَاءٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاء
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُم وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ
وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وقد ابتدر حسان رضي الله عنه قصيدته بالنسيب بحسب العرف السائد في القصيدة العربية آنذاك فقال :

عفتْ ذاتُ الأصابع فالجواءُ، إلى عذراءَ منزلها خلاء
دِيَارٌ مِنْ بَني الحَسْحَاسِ قَفْرٌ، تعفيها الروامسُ والسماءُ
وكانَتْ لا يَزَالُ بِهَا أنِيسٌ، خِلالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ
فدعْ هذا، ولكن منْ لطيفٍ، يُؤرّقُني إذا ذَهَبَ العِشاءُ
لشعثاءَ التي قدْ تيمتهُ، فليسَ لقلبِهِ منها شفاءُ
كَأنّ سَبِيئَة مِنْ بَيْتِ رَأسٍ، يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

وقد كان للنحات وقفات عند هذا البيت لاسيما في كلمة (مزاجها) فقد أعربوها بأكثر من وجه ، تارة مرفوعة وتارة منصوبة ، ولكن قبل أن نستعرض وجوه الإعراب عندهم لابد أن ننظر إليه من زاوية اللغة لنستجلي معني البيت ومضمونه ، جاء في لسان العرب لابن منظور : " هذا البيت في الصحاح كأَنَّ سَبِيئةً في بيت رأْسٍ قال ابن بري وصوابه مِن بَيْتِ رأْسٍ وهو موضع بالشام والسَّبَّاءُ بَيَّاعُها ".

وجاء في الصحاح " سَبَأْتُ الخمر سَبْأً ومَسْبَأً، إذا اشتريتَها لتشربها. قال الشاعر: يَغْلو بأيدي التِجار مَسْبَؤُها أي إنها من جودتها يغلو اشتراؤها. واسْتَبَأْتُها مثله،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والاسم: السِباءُ، ومنه سُمِّيَتِ الخَمْرُ سَبِيئَةً. ويُسَمَّونَ الخمَّار: السَّبَّاء. فأمَّا إذا اشتريتها لتحملها إلى بلدٍ آخر قلت: سَبَيْتُ الخمر بلا همزٍ ".

وقال ياقوت الحموي ، صاحب معجم البلدان: " بيت رأس اسم لقريتين في كل واحدة منهما كروم كثيرة ينسب إليها الخمر إحداهما بالبيت المقدس وقيل بيت رأس كورة بالأردن والأخرى من نواحي حلب " .

قال المبرد في كتابه الكامل " وقوله : " كأن سبيئةٌ " ، يقال سبأتها: إذا اشتريتها سباءٌ، يعني الخمر، والسابيء:الخمار ".

وقد وُجّه سؤال نحوي إلى حسان رضي الله عنه في رسالة الغفران ، للمعري " كيف قلت يا أبا عبد الرحمن: أيكون مزاجها عسل وماء، أم مزاجها عسلاً وماء، أم مزاجها عسل وماء على الابتداء والخبر؟ " .وقد أجاب النحاة عن هذا السؤال :

فجاء في كتاب علل النحو لأبى الحسن الوراق " العسل نكرة ، وهي اسم (كان) ، والمزاج معرفة ، وهو الخبر ، وإنما حسن مثل هذا لأن العسل اسم جنس ، فتعريفه كتنكيره في المعنى ، وقلما يوجد في أشعارهم أن يكون الخبر معرفة محضة ،والاسم نكرة محضة، لما ذكرناه من قبح ذلك".

وقال أبوبكر البغدادي في الأصول في النحو " فجعل اسم (كان) عسل وهو نكرة وجعل مزاجها الخبر وهو معرفة بالإضافة إلى الضمير ومع ذلك فإنما حسن هذا عند قائله أن عسلا وماء نوعان وليسا كسائر النكرات التي تنفصل بالخلقة والعدد نحو : تمرة وجوزة ، والضمير الذي في (مزاجها) راجع إلى نكرة وهو قوله : سبيئة ، فهو مثل قولك : خمرة ممزوجة بماء ".

وذكر ابن منظور في لسان العرب " قال حسان كأَنَّ سَبِيئةً من بيتِ رأْسٍ يكونُ مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ قال نصب مزاجها على أَنه خبر كان فجعل الاسم نكرة والخبر معرفة وإِنما جاز ذلك من حيث كان اسْمَ جنس ولو كان الخبر معرفة محضة لَقَبُحَ "

ويقول جمال الدين عبد الله الأنصاري في كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مالك ، " ومما جاء بزيادة "تكون" بلفظ المضارع، قول حسان بن ثابت:

كأنْهُ سبيئةٌ من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماءُ

فعلى رواية رفع "مزاجها عسل وماء" على أنها جملة من مبتدأ وخبر في محل رفع صفة لـ "سبيئة" فذهب بعضهم إلى زيادة "يكون" على هذه الرواية، وذهب بعضهم إلى أن يكون" عاملة واسمها ضمير شأن محذوف، ومزاجها عسل وماء، من المبتدأ والخبر، في محل نصب خبرها ".

وجاء في شرح أبيات سيبويه للسيرافي " والشاهد في البيت إنه جعل (مزاجها) وهو معرفة خبر يكون. وقد حكي عن أبي عثمان إنه كان ينشد:

يكون مزاجُها عسلاً وماءُ

يرفع (مزاجها) بيكون، وينصب (عسلا) لأنه خبر يكون، يرفع (ماء) بإضمار فعل كأنه قال: ومازجها ماء . وقيل: قد قال بعضهم:

يكون مزاجها عسلٌ وماءُ

يجعل في (يكون) ضمير الأمر والشأن، ويرفع (مزاجها) بالابتداء، وما بعده خبره، والجملة في موضع خبر يكون. وهذان الوجهان لا يدفع جوازهما ولكن الرواية على ما أنشد سيبويه، ولم يقل سيبويه إنه لا يجوز غير ما أنشده ولكنه أنشد البيت على الوصف الذي روته الرواة، وذكر وجه روايتهم.

فالذي يحسن جعل النكرة في هذا البيت اسما، أن العسل والماء وما أشبههما من الأجناس تؤدي نكرته عن معرفته في المعنى، كما تقول: فلان يأكل خبزا ويشرب ماء، أو يأكل الخبز ويشرب الماء، يريد إنه يأكل من هذا الجنس ويشرب منه. فلو قال: يكون مزاجها العسل والماء، لكان بمنزلة قوله: عسل وماء. وقد يجوز أن ينشد: يكون مزاجها عسل وماء، يجعل في (يكون ضمير السبيئة، و (مزاجها) مبتدأ وما بعده خبره، والجملة في موضع خبر (يكون). ويجوز أن يقال: أن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في (يكون) ضميرا من السبيئة، و (من بيت رأس) خبر يكون، والجملة وصف للسبيئة، و (مزاجها عسل وماء) جملة هي وصف ثان ".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوقفة الثالثة

مع زهير بن أبي سُلمى

زهير بن أبي سُلمى حكيم شعراء الجاهلية ، وأحد عبيد الشعر، كان الأصمعي يقول: " زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر " كان يكتب القصيدة في شهر وينقحها في سنة فكانت قصائده الكبار تسمى بالحوليات ، وعند الحطيئة " أفضل الشعر الحولي المحكك " يقول أبو منصور الثعالبي " كان زهير أجمع الناس للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ ، وأحسنهم تصرفاً في المدح والحكمة ". أشعر الشعراء عند الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله، وعندما سُئل عن ذلك علل بقوله:" كان لا يعاظل في الكلام ، ولا يتبع وحشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه ". نقف عند بيت في إحدى قصائده من بحر الطويل :

تراه إذا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلاً كأنّك تُعْطِيه الذي أنتَ سائِلُهْ

يقول ابن منظور في لسان العرب : والهَليلةُ: الأَرض التي استهلَّ بها المطر، وقيل: الهَلِيلةُ الأَرض المَمْطورة وما حَوالَيْها غيرُ مَمطور. وتَهَلَّل السحابُ بالبَرْق: تَلأْلأَ. وتهلَّل وجهه فَرَحاً: أَشْرَق واستهلَّ. وفي حديث فاطمة، عليها السلام: فلما رآها استبشَر وتهلَّل وجهُه أَي استنار وظهرت عليه أَمارات السرور. الأَزهري: تَهَلَّل الرجل فرحاً؛ وأَنشد :

تَراه، إذا ما جئتَه، مُتَهَلِّلاً كأَنك تُعطيه الذي أَنت سائلُهْ

واهْتَلَّ كتَهلَّل؛ قال:

ولنا أَسامٍ ما تَليقُ بغيرنا ومَشاهِدٌ تَهْتَلُّ حين تَرانا

وما جاء بِهِلَّة ولا بِلَّة؛ الهِلَّة: من الفرح والاستهلال، والبِلَّة: أَدنى بَلَلٍ من الخير؛ وحكاهما كراع جميعاً بالفتح. ويقال: ما أَصاب عنده هِلَّة ولا بِلَّة أَي شيئاً. ابن الأَعرابي: هَلَّ يَهِلُّ إذا فرح، وهَلَّ يَهِلُّ إذا صاح.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يقول أبو منصور الثعالبي في (الإعجاز والإيجاز) : وقع الإجماع على أن أمدح بيت للعرب قول زهير:

تَراه، إذا ما جئتَه، مُتَهَلِّلاً كأَنك تُعطيه الذي أَنت سائلُهْ

وجاء في كتاب (زهر الآداب وثمر الألباب) لأبى اسحاق القيرواني : قال أبو الفرج قُدامةُ بن جعفر ، في معنى أبيات زهير الأولى: لما كانت فضائلُ الناسِ من حيث هم ناس ، لا من طريقِ ما هم مشترِكون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهلُ الألباب من الاتّفاق في ذلك ، إنما هي العقلُ والعفةُ والعَدْلُ والشجاعة ، كان القاصد للمَدْح بهذه الأربعة مُصِيباً ، وبما سواها مخطئاً ؛ وقد قال زهير:

أخي ثقةٍ لا يُتْلِفُ الخمرُماله ولكنه قد يُهْلِكُ المالَ نائِلُهْ

فوصفه بالعفَة لقلّةِ إمعانه في اللذات ، وأنه لا يُنْفد فيها ماله ، وبالسخاء لإهلاك ماله في النوال ، وانحرافه إلى ذلك عن اللذّات ، وذلك هو العدل ، ثم قال:

تَراه، إذا ما جئتَه، مُتَهَلِّلاً كأَنك تُعطيه الذي أَنت سائلُهْ

فزاد في وَصْفِ السخاء بأنه يَهَش ولا يلحقه مضَض ولا تكَرُّهٌ لِفعْله.

وفي (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري: " وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول زهير :

تَراه، إذا ما جئتَه، مُتَهَلِّلاً كأَنك تُعطيه الذي أَنت سائلُهْ

وعاب بعضهم هذا البيت وقال : جعل الممدوح يفرح بغرضٍ يناله ، وليس هذا صفة كبير الهمة ، والجيد قول أبي نوفل عمرو بن محمد الثقفي :

ولئن فرحت بما ينيلك لبما ينيلك من نداه أفرح
ما زال يعطي ناطقا أو ساكتا حتى ظننت أبا عقيلٍ يمزح

ويقول الأبشهي صاحب كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) : " قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام مرقص كقول أبي جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس:

والشمس لا تشرب خمر الندى في الروض إلا من كؤوس

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومطرب كقول زهير:

تَراه، إذا ما جئتَه، مُتَهَلِّلاً كأَنك تُعطيه الذي أَنت سائلُهْ

ومقبول كقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجه الطبع كقول ابن المعتز:

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر

ومتروك وهو كان كلا على السمع والطبع كقول الشاعر:

تقلقلت بالهم الذي قلقل قلاقل هم كلهن قلاقل

وبحسب بعض النقاد القدماء فإن بيت زهير السابق أمدح بيت قالته العرب ، ولكن قد يكون ذلك وقد لا يكون فهذا يحتاج إلى بحث وتدقيق وتحليل وتفسير وتعليل وموازنة ووقوف متأن عند أبيات المديح الأخرى في الشعر العربي ، وإليك في عجالة دون تعليق رؤية بعض النقاد القدماء الآخرين الذين يعدون أبياتا أخرى أمدح ما قالته العرب.

جاء في كتاب (الفرج بعد الشدة) للتنوخي " عندما سأل الخليفة المهدي المفضل الضبي عن أمدح بيت قالته العرب قال : فتبلدت ساعة، لا أذكر شيئاً، ثم أجرى الله على لساني، أن قلت: قول الخنساء. فأشرق وجهه، وقال: حيث تقول ماذا ؟ فقلت: حيث تقول:

وإنّ صخراً لوالينا وسيّدنا وإنّ صخراً إذا نشتو لنحّار

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به كأنّه علم في رأسه نار

وقال ابن الأعرابيّ: أمدح بيت قالته العرب قول أوس بن مغراء في سعيد بن العاص:

ما بلغتْ كفُّ امرئٍ متناولِ من المجد إلاَّ والذي نلت أطولُ

ولا بلغَ المهدون في القول مدحةً وإنْ أطنبوا إلاّ الذي فيك أفضلُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقال غيره: أمدح بيت قولُ الأعشى:

فتىً لو يبارى الشمسَ ألقتْ قناعها أو القمرَ الساري لألقى المقالدا

وقال ابن شبرمة: قول الحطيئة:

أولئك قومٌ إنْ بنَوا أحسنوا وإن عاهدوا أوفوْا وإن عقَدوا
وإن كانت النعماءُ فيهم جزوا وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا

وقالوا أيضاً: بيت زهير:

على مكثِريهم حقُّ من يعتريهم وعند المقلِّين السماحةُ والبذلُ

وقالوا: بيت حسّان:

يغشونَ حتّى ما تهرُّ كلابُهم لا يسألون عن السَّواد المقبلِ

وقالوا أمدح بيت قول جرير من بحر الوافر:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا، وَأَنْدَى العالَمِيْنَ بطونَ راح؟

وجاء في (ديوان المعاني)لأبى هلال العسكري : " سمعت أبا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد، رحمه الله تعالى يقول: أمدح بيت قالته العرب قول النابغة الذبياني.

ألم تَرَ أنّ اللَّهَ أعطاكَ سُورة تَرى كلَّ مَلْك دُونها يَتَذَبْذَب
بأنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبْدُ منهنّ كوكبُ

وقال أبو تمام الطائي: لا أعرف أحداً أحسنَ صنعةً في الترديد من قوْلِ زُهير وهو:

مَنْ يلْقَ يوماً على عِلاّتِه هرماً يَلْقَ السّماحةَ منهُ والنّدَى خُلُقا

ويُروى: إن تلقَ... وتلقَ السّماحةَ. قال الأصمعي: هذا أمدحُ بيتٍ قالتْهُ العرَب ".

ولو ظللنا نرصد ذلك لطال بنا المقام ، ولكن يبقى زهير صاحب صنعة شعرية متقنة ، بلغة السهل الممتنع ، يرمي إلي الحكم البعيدة ، والمديح الصادق ، فلا يمدح الرجل إلا بما فيه ، ومن المؤكد أن بيته السابق مطرب كما قال الأبشهي ، وفي تقديري أن كلمة (مطرب) فيها توصيف دقيق للحالة الشعورية التي تنتاب السامع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أو القارئ لهذا البيت ، فهو يهززك عند سماعه بما يحمل من معان فريدة ، ولغة رصينة ، ومديح صادق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوقفة الرابعة

مع ابن قيس الرُّقيات

نقف هذه المرة مع بيت للشاعر ابن قيس الرقيات من مجزوء الكامل :

وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلاَكَ وَقَدْ كَبِرْتَ فَقُلْتِ إِنَّهْ

هو عبيد الله بن قيس، أحد بني عامر بن لؤي، ولد بمكة في العقد الثالث للهجرة ، وتحول عنها إلى المدينة ، أحد الشعراء المجيدين. كان زبيري الهوى ، ومفاخرا بقريش ، كان من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة ، والأخرى القصيرة وهو من هذه الناحية يطبع شعره بطوابع الغناء التي عاصرته إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان.

اختلفوا في سبب نعته بالرقيات. والأرجح أنه كان يشبب بغير فتاة تسمى رقية منهن رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد بن قيس بن وهب بن أهبان بن ضباب بن حجير بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي، وابنة عم لها يقال لها رقية، وامرأة من بني أمية يقال لها رقية. وكان هواه في رقية بنت عبد الواحد. يقول ابن الرقيات:

رُقَيَّ بعيشكمْ لا تَصْرمينا ومنّينا المنى ثم امطلينا
عدينا من غدٍ ما شئتِ إنّا نحبّ وإن مطلتِ الواعدينا

ويقول:

رُقَيَّةُ تَيَّمَت قَلبي فَواكَبِدي مِنَ الحُبِّ
وَقالوا داؤُهُ طِبٌّ أَلا بَل حُبُّها طِبّي

توفي عبيد الله في حدود الثمانين للهجرة.

وشرح البغدادي صاحب خزانة الأدب البيتين :

بَكَرَتْ علىَّ عواذِلى يَلْحَيْنَنِى وأَلومُهُنَّهْ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويقلْنَ شَيْبٌ قدْ علاّ كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّهْ

بكر : جاء بكرة هذا أصله ثم استعمل في كل وقت . والعواذل : جمع عاذلة . ورواه صاحب الصحاح : قال ابن السيرافي : يلحيننني : يلمنني على اللهو والغزل . وألومهن على لومهن لي ويقلن : قد شبت وكبرت فقلت : نعم . يريد أنه يأتي ما يأتي على علمٍ منه بأمر نفسه .

كما تناول العلماء البيت كشاهد نحوي جاء في الكتاب لسيبويه : وأما قول العرب في الجواب إنَّه فهو بمنزلة أجل وإذا وصلت قلت إنَّ يا فتى وهي التي بمنزلة أجل قال الشاعر:

بَكَرَتْ عليَّ عواذِلي يَلْحَيْنَنِي وأَلومُهُنَّه

ويَقُلْنَ شَيْبٌ قدْ علاّ كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّهْ

يقول ابن منظور في لسان العرب :إنَّ حرف تأْكيد وقوله عز وجل "إنَّ هذانِ لساحِران" أَخبر أَبو علي أَن أَبا إسحق ذهب فيه إلى أَنَّ إنَّ هنا بمعنى نَعَمْ وهذان مرفوعٌ بالابتداء وأَنَّ اللامَ في لَساحران داخلةٌ على غير ضرورة وأَن تقديره نَعَمْ هذان هما ساحِران وحكي عن أَبي إسحق أَنه قال هذا هو الذي عندي فيه والله أَعلم.

قال ابن سيده وقد بيَّن أَبو عليٍّ فسادَ ذلك فغَنِينا نحن عن إيضاحه هنا وفي التهذيب وأَما قول الله عز وجل (إنَّ هذان لَساحِران)فإنَّ أبا إسحق النحوي اسْتَقْصى ما قال فيه النحويون فحَكَيْت كلامه قال قرأَ المدنيُّون والكوفيون إلا عاصماً إنَّ هذان لَساحِران وروي عن عاصم أَنه قرأَ إنْ هذان بتخفيف إنْ وروي عن الخليل إنْ هذان لساحِران قال وقرأَ أَبو عمرو إنّ هذين لساحران بتشديد إنّ ونصْبِ هذين قال أَبو إسحق والحجةُ في إنّ هذان لساحِران بالتشديد والرفع أَن أَبا عبيدة روى عن أَبي الخطاب أَنه لغةٌ لكنانةَ يجعلون أَلفَ الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد يقولون رأَيت الزيدان وروى أَهلُ الكوفة والكسائي والفراء أَنها لغة لبني الحرث

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بن كعب قال وقال النحويون القُدَماء ههنا هاءٌ مضمرة المعنى إنه هذانِ لساحِران قال وقال بعضهم إنّ في معنى نعَمْ كما تقدم وأَنشدوا لابن قيس الرُّقَيَّات:

بَكَرَتْ عليَّ عواذِلي يَلْحَيْنَنِي وأَلومُهُنَّهْ
ويَقُلْنَ شَيْبٌ قدْ علاّ كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّه

أَي إنه قد كان كما تَقُلْن قال أَبو عبيد وهذا اختصارٌ من كلام العرب يُكتفى منه بالضمير لأَنه قد عُلِم معناه وقال الفراء في هذا إنهم زادوا فيها النونَ في التثنية وتركوها على حالها في الرفع والنصب والجر كما فعَلوا في الذين فقالوا الَّذِي في الرفع والنصب والجر قال فهذا جميع ما قال النحويون في الآية قال أَبو إسحق وأَجودُها عندي أَن إنّ وقعت موقع نَعَمْ وأَن اللام وَقَعتْ موقِعَها وأَنّ المعنى نعَمْ هذان لهما ساحران قال والذي يلي هذا في الجَوْدَة مذهبُ بني كنانة وبَلْحَرِث بن كعب فأَما قراءةُ أَبي عمرو فلا أُجيزُها لأَنها خلافُ المصحف قال وأَستحسن قراءةَ عاصم والخليل إنْ هذان لَساحِران وقال غيرُه العرب تجعل الكلام مختصراً ما بعْدَه على إنَّه والمراد إنه لكذلك وإنه على ما تقول قال وأَما قول الأَخفش إنَّه بمعنى نَعَمْ فإنما يُراد تأْويله ليس أَنه موضوع في اللغة لذلك قال وهذه الهاء أُدْخِلت للسكوت وفي حديث فَضالة بن شَريك أَنه لقِيَ ابنَ الزبير فقال إنّ ناقتي قد نَقِبَ خفُّها فاحْمِلْني فقال ارْقَعْها بجِلدٍ واخْصِفْها بهُلْبٍ وسِرْ بها البَرْدَين فقال فَضالةُ إنما أَتَيْتُك مُسْتَحْمِلاً لا مُسْتَوْصِفاً لا حَمَلَ الله ناقةً حمَلتْني إليك فقال ابن الزبير إنّ وراكِبَها أَي نعَمْ مع راكبها.

وذكر الزجاجي في كتابه حروف المعاني : إنَّ المشددة المكسورة لها موضعان تكون تحقيقا وصلة للقسم كقولك إن زيدا قائم ووالله إن أخاك عالم ، وتكون بمعنى أجل فلا تعمل شيئا كقول القائل لابن الزبير لعن الله ناقة حملتني إليك فقال إنَّ وراكبها معناه أجل كقول الشاعر:

ويَقُلْنَ شَيْبٌ قدْ علاّ كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّهْ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويقول ابن السراج البغدادي في الأصول في النحو : الحروف كلها لك أن تقف عليها على لفظها ، فالصحيح فيها والمعتل سواء ، وقد ألحق بعضهم الهاء في الوقف لبيان الحركة فقال: إنَّه ، يريدون (أنَّ) ومعناها أجل ، قال الشاعر:

ويَقُلْنَ شَيْبٌ قدْ علاّ كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّهْ
وليته ، ولعله كذاك .

يبدو أن شاعرنا ابن قيس الرقيات قد استسلم للعواذل واعترف بأنه كبر وشاب رأسه ولكن جريرا قد تمرد عليهن وأنكر ذلك حين قال:

تقول العاذلات علاك شيبٌ أهذا الشيب يمنعني مراحي

أما علقمة بن عبدة الفحل فهو صاحب خبرة وتجربه ، ويدعى أنه يعرفهن تماما حيث يقول:

فإنْ تَسْأَلُونِى بالنِّسَاءِ فإنَّنى بَصِيرٌ بأَدْواءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شاب رأَسُ المَرْءِ أَو قَلَّ مالُه فليس له في وُدِّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءِ المالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ وشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوقفة الخامسة

مع التجاني يوسف بشير

نقف هذه المرة على باب الشاعر السوداني المجدد العبقري التجاني يوسف بشير، (1912-1937) وقد مضت على وفاته مائة وبضع سنين ، فمات عن خمسة وعشرين عاما ، وقد اكتهل وما يزال على ريق الحداثة فنه ، مما جعل الأديب الشاعر الطيب السراج يقول : " التيجاني تزبَّب وهو حصرم " فلان يتزبب وهو حصرم ، مثل عربي قديم يضرب للصبيّ الذي يتشايخ ، ويضرب فيمن يتعاطى رتبة قبل أن يصل إليها ، فالتجاني تربع على قمة عرش الشعر وهو ما يزال يافعا، وظل مثيرا للجدل ، محركا لحفيظة الأدباء والنقاد والباحثين في شعره، إلى يومنا هذا وسيظل ، يقول:

أَنا إن مُت فَالتَمسنى فى شعـ ري تَجدنى مدثراً بِرقاعه
في يَميني يَراع نابِغَة الفصـ حى وَكُلُ امرئِ رَهين يَراعه

فالبيت الأول مفتاحي لسبر أغوار شخصية الشاعر، ومعرفة أبعادها فهو يختصر الطريق للباحثين، فمن أرادني فأنا مدثر برقاع شعري، موجود بين ثنايا عباراتي، وأشطر قصائدي المفعمة بالغموض المحبب ، والتي لا تعطيك معانيها إلا بعد تمنع منها فبين أسطرها نجد التجاني العاشق للجمال في شتى صوره ، المولع بالطبيعة الساحرة ، والمرأة الملهمة ، والمقال لا يسع للحديث عن كل هذه التجليات ، ونكتفي بالتجاني الفيلسوف ففي قصيدته " قلب الفيلسوف " يرسم صورة لهذا الفيلسوف ويختزله في شخصه فهو فقير بسيط في ملبسه ومسكنه ، فمسكنه كوخ متواضع ، أسمى من قصر الثري الشامخ ، أما ملبسه فثياب ممزقة لا تكاد تستر جسده المنهك الناحل ، وهو يطل من جبل الأحقاب محتملا سفر الحياة متعب مكدود ، مشرد النفس لا مال ولاجاه ، ولكن في فكره أضخم الحقائق الفلسفية ، وفي جعبته أعمق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التجارب الإنسانية على صغر سنه ، وفي عينيه نظرات ثاقبة جبارة تكشف أقصى العوالم:

أَطل مِن جَبَل الأَحقاب مُحتملاً سفر الحَياة عَلى مَكدود سَيماه
عاري المَناكب في أَعطافِهِ خَلق مِن العِطاف قَضى إلا بَقاياه
مَنبأ مِن سَماء الفكر مَمسكة عَلى الرسالة يُمناه وَيُسراه
يَرمي سِواهُم أَنظار منفضة أَقصى العَوالم مِن عَينيك عَيناه
أَوفى عَلى الأَرض مَأخوذاً وطا ف بِها مُشَرد النَفس لا مال وَلاجاه
يَطوي وَيَظمأ حَتّى ما تَبين عَلى ما فيهِ مِن حرقات الجُوع ساقاه
يا ناصح الجَيب لَم يَعلق بِهِ وَضر مِن الحَياة وَلَم يَأخُذ بِنَجواه

وفلسفة التجاني الفقير المعدم أنه فوق الغنى والفقر، وأنه لم يفكر يوماً في ذلك فهو لم يغن ولا يبتغي ذلك، ولا يرغب فيه لا لعجز منه، ولكن لأن هذا لا يشغله ولا يشكل هاجسا له، فله دنيا أخرى ينعم فيها هي دنيا الفن والفكر، فهي أسمى من دنيا المال والغنى، وقمة فلسفته في هذا الشأن أنه عاش ينعم بفقره ويسعد به في قناعة تامة يقول في قصيدته " دنياي":

دُنياي وَهِيَ مِن الدُنيا عَلى نَفس أَثرى مِن التبر أَو أَسمى مِن المال
وَلا غَنيت وَما أَبغي وَلا رَغبت دُنياي في وَفرة مِنها وِاقلال
وَعَشت أَنعَم فى عَدمى وَيُسعدنى إنى تَخففت مِن إصري وَأَثقالى

وعودا إلى أبيات شاعرنا الأولى الموقوف عليها نجدها ذات لغة قاموسية فهو يستخدم الألفاظ بمعناها القاموسي في كل شعره، ولا غرو في ذلك فقد كان يداوم على قراءة القاموس المحيط حتى كاد أن يحفظه.

كما أن التأثير القرآني باد على لغته في الأبيات الموقوف عليها فقد حفظه منذ نعومة أظافره فقوله : " مدثرا برقاعه " توحي لنا بالآية الكريمة : ﴿ يا ايها المدثر ﴾ المدثر الأية 1 . " وكل امرئ رهين يراعه " فكأنما يقتبسها من الآية الكريمة ﴿كُلُّ ٱمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ الطور 21 ، ويبدو في الأبيات عنصر المفاجأة الشعرية في قوله : " في يَميني يَراع نابِغَة الفصحى " – وأعتقد أنه يقصد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المتنبي – فالذي يتبادر إلى الذهن أنه سيقول في الشطر الثاني وفي يساري كذا ولكنه يفاجئنا بقوله " وَكُلُ امرئٍ رَهين يَراعه " فتحدث الدهشة الشعرية .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوقفة السادسة

مع لبيد بن ربيعة

نقف هذه المرة مع بيت شعري للمخضرم لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من أهل عالية نجد، دخل الإسلام وحسن إسلامه ، وسكن الكوفة وعاش عمراً طويلاً، وهو أحد أصحاب المعلقات، يقول:

ذَهَبَ الذينَ يُعاشُ في أكْنافِهِم وبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجلْدِ الأجْرَبِ

قال البرقوقي صاحب كتاب (الذخائر والعبقريات) : "هناك من يذهب إلى أنّ ماضي الزمانِ كحاضرِه، لا يَفْضُل قديمُ الزمانِ حديثَه، وإنّما الأيّام كلُّها، أو الناسُ جميعاً، قُداماهم ومُحْدثوهم وأوّلُهم وآخرُهم سواسيةٌ في أنّهم خَلْفٌ كجلد الأجربِ ".

ولكن في الغالب يرى الناس ماضيهم أجمل من حاضرهم ومستقبلهم ، فالحنين إلى الماضي يأسر ألبابهم ويسيطر على عقولهم ويتمنون العودة إليه لو يرجع بهم الزمان القهقرى . ومن كلام الحسن البصري في هذا الشأن: كان الناس وَرَقاً بلا شوكٍ فصاروا شوكاً بلا وَرَقٍ، وقالوا:

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ فيه فَلَمَّا صِرْتُ في غيره بَكَيْتُ عَلَيْه

القول في كلمة " خلف ":

لقد بسط العلماء القول في لفظة "خلف" بفتح اللام أو سكونها وبينوا دقائق اختلاف المعنى للفظة في الحالتين ، وإليكم أقوال بعضهم في هذا الصدد. قال الجوهري صاحب معجم الصحاح : خَلْفٌ: نقيضُ قُدَّامْ. والخَلْفُ: القرنُ بعد القرن. يقال هؤلاء خَلْفُ سَوءِ الناس لاحقين بناسٍ أكثر منهم قال لبيد:

ذَهَبَ الذينَ يُعاشُ في أكْنافِهِمْ وبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجلْدِ الأجْرَبِ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والخَلْفُ: الرديءُ من القول، يقال: سكت أَلْفاً ونطق خَلْفاً أي سكت عن ألف كلمة ثم تكلَّم بخطأ. والخَلْفُ أيضاً: الاستقاءُ. والخَلْفُ: أقصر أضلاع الجَنْب، والجمع خُلوفٌ وفأْسٌ ذات خَلْفَيْنِ، أي لها رأسان. والخَلْفُ والخَلَفُ: ما جاء من بَعْدُ. يقال: هو خَلْفُ سَوءٍ من أبيه، وخَلَفُ صدقٍ من أبيه، بالتحريك، إذا قام مقامه. قال الأخفش: هما سواءٌ، منهم من يحرِّك، ومنهم من يسكِّن فيهما جميعاً إذا أضاف. وبعيرٌ أَخْلَفُ بيِّن الخَلَفِ، إذا كان مائلاً على شِقٍّ. والخَلَفُ أيضاً: ما اسْتَخْلَفْتَهُ من شيء. والخُلْفُ، بالضم: الاسمُ من الإخلاف، وهو في المستقبل كالكذِب في الماضي. والخِلْفُ، بالكسر: حَلَمَةُ ضرعِ الناقة القادمان والآخِران. ويقال أيضاً: هنَّ يمشين خِلْفَةً، أي تذهب هذه وتجيء هذه. ومنه قول زهير:

بها العِنُ والأَرْآمُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وأَطْلاؤُها ينْهَضْنَ من كل مَجْثِمِ

ويقال أيضاً: القومُ خِلْفَةٌ، أي مختلفون. حكاه أبو زيد، وأنشد:

دَلْوايَ خِلْفانِ وساقِياهُما

وبنو فلان خِلْفَةٌ، أي شِطْرَةٌ: نصفٌ ذكورٌ ونصفٌ إناثٌ. والخِلْفَةُ: اختلاف الليل والنهار ومنه، قوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً". ويقال: أخذتْه خِلْفَةٌ، إذا اختلف إلى المُتَوَضَّأِ. ويقال: مِن أين خِلافَتكُمْ، أي من أين تستقون. والخِلْفَةُ: نبتٌ ينبتُ بعد النبات الذي يتهشّم. وخِلْفَةُ الشجر: ثمرٌ يخرج بعد الثمر الكثير. وقال أبو عبيد: الخِلْفَةُ: ما نبت في الصيف. والخِلِفُ بكسر اللام: المَخاضُ، وهي الحواملُ من النوق، الواحدة خَلِفَةٌ.

والمُخْلِفُ من الإبل: الذي جاوز البازِلَ، الذكرُ والأنثَى فيه سواء، يقال مُخْلِفُ عامٍ ومُخْلِفُ عامين. والمُخْلِفَةُ من النوق، هي الراجعُ التي ظهر لهم أنّها لَقِحَتْ ثم لم تكن كذلك. ورجلٌ مِخلافٌ، أي كثير الإخلاف لوعده. ورجلٌ خالِفَةٌ، أي كثير الخِلافِ. ويقال: ما أدري أيُّ خالِفَةَ هو؟ أيْ أيّ الناس هو، غير مصروفٍ للتأنيث والتعريف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفلانٌ خالِفَةُ أهلِ بيته وخالِفُ أهلِ بيته أيضاً، إذا كان لا خير فيه. والخالِفَةُ: عمودٌ من أعمدة الخباء، والجمع الخَوالِفُ. وقوله تعالى: (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ)أي مع النساء. والخالِفُ: المُسْتَقي. والخَليفُ: الطريقُ بين الجبلين. قال الشاعر:

فلما جَزَمْتُ به قِرْبَتي تَيَمَّمْتُ أَطْرِقَةً أو خَليفا

وخَليفا الناقةِ: إبْطاها. والخَليفةُ: السلطانُ الأعظمُ. وقد يؤنّث. وأنشد الفراء:

أَبوكَ خليفةٌ وَلَدَتْهُ أخرى وأنت خَليفَةٌ ذاك الكَمالُ

والجمع الخَلائِفُ. وقالوا أيضاً: خُلَفاءُ. ويقال: خَلَفَ فلانٌ فلاناً، إذا كان خَليفَتَهُ. يقال خَلَفَهُ في قومه خِلافَةً. ومنه قوله تعالى: (وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي). وخَلَفْتُهُ أيضاً، إذا جئتَ بعده. وخَلَفَ فَمُ الصائم خُلوفاً، أي تغيّرتْ رائحته. وخَلَفَ اللبنُ والطعامُ، إذا تغيّرَ طعمه أو رائحتُهُ. وقد خَلَفَ فلانٌ، أي فسد. وخَلَفْتُ الثوب أَخْلُفُهُ، فهو خَلِيفٌ، إذا بَلِيَ وَسَطُهُ فأخرجت الباليَ منه ثم لفَفته. وحيٌّ خُلوفٌ، أي غُيَّبٌ. قال أبو زبيد:

أصبح البيتُ بيتُ آل إياس مقشعرّاً والحيُّ حيٌّ خَلوفُ

أي لم يبق منهم أحد. والخلوفُ أيضاً: الحضورُ المُتَخَلِّفونَ، وهو من الأضداد. وأَخْلَفَ فوهُ: لغة في خَلَفَ، أي تغيّر. وأَخْلَفْتُ الثوبَ: لغةٌ في خَلَفْتُهُ، إذا أصلحتَه. قال الكميت يصف صائداً:

يَمشي بهنّ خَفيُّ الشخصِ كالنَصْلِ أَخْلفُ أَهْداماً بأَطْمار

أي أَخْلَفَ موضع الخُلقان خُلقاناً. ويقال لمن ذهب له مالٌ أو ولدٌ أو شيء يستعاض: أَخْلَفَ الله عليك، أي ردَّ عليك مثل ما ذهب. فإن كان قد هلك له والدٌ أو عمٌّ أو أخٌ قلت: خَلَفَ اللهُ عليك بغير ألف، أي كان الله خَليفَةَ والدك أو من فقدته عليك. ويقال: أَخْلَفَهُ ما وعده، وهو أن يقول شيئاً ولا يفعله على الاستقبال. وأَخْلَفَهُ أيضاً، أي وجد موعده خُلْفاً. قال الأعشى:

أَثْوي خُلْفاً وقَصَّرَ ليلةً ليُزَوَّدا فَمَضَتْ وأَخْلَفَ من قُتَيْلَةَ مَوْعِدا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أي مضت الليلة. وكان أهل الجاهلية يقولون: أَخْلَفَتِ النجومُ إذا أملحتْ فلم يكن فيها مطر. وأَخْلَفَ فلانٌ لنفسه، إذا كان قد ذهبَ له شيء فجعل مكانَه آخر. قال ابن مقبل:

وكُلْهُ مع الدهر الذي هو آكِلُهُ فأَخْلِفْ وأَتْلِفْ إنما المالُ عارَةٌ

يقول: اسْتَفِدْ خَلَفَ ما أتلفت. وأَخْلَفَ الرجل، إذا أهوى بيده إلى سيفه ليَسُلَّهُ. وأَخْلَفَ النباتُ، أي أخرج الخِلْفَةَ. وأَخْلَفَ واسْتَخْلَفَ، أي استقى. واسْتَخْلَفَهُ، أي جعله خَلِيفَتَهُ. وجلست خَلْفَ فلان، أي بعده. والخِلافُ: المُخالفَةُ. وقوله تعالى: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ)أي مُخالَفَةَ رسول الله، ويقال خَلْفَ رسولِ الله. وشجرُ الخِلافِ معروفٌ، وموضعُه المَخْلَفَةُ. وقولهم: هو يخالفُ إلى امرأة فلانٍ، أي يأتيها إذا غابَ عنها. وتقول: خَلَّفَ بناقته تَخْليفاً، أي صَرَّ منها خِلْفاً واحداً. وتقول أيضاً: خَلَّفْتُ فلانا ورائي فتَخَلَّفَ عنِّي، أي تأخر.

وجاء في الأمالي لأبي على القالي " قال أبو زيد: خلف الشراب واللبن يخلف خلوفا إذا حمض، ثم أطيل إنقاعه ففسد. وقال أبو زيد والأصمعي: خلفت نفسه عن الطعام تخلف خلوفا إذا أضربت عنه من مرض، وقال أبو زيد: لا يقال ذلك إلا من المرض. وقال أبو نصر عن الأصمعي: خلف صدق بإسكان اللام إذا ترك عقباً.

وجاء في كتاب الكامل للمبرد في معرض حديثه عن بيت لبيد الآنف الذكر: " قوله: في خلف يقال: هو خلف فلان لمن يخلفه من رهطه، وهؤلاء خلف فلان؛ إذا قاموا مقامه من غير أهله، وقلما يستعمل خلف إلا في الشر".

قال الجاحظ في البيان والتبيين "والخَلَفُ: البقيّة الصالحة من ولد الرجل وأهلِه، والخلْف ضد هذا".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوقفة السابعة

مع السفاح بن الرقراق الجني

قال شاعر من شعراء الجن:

ولَرُبَّ راج حِيْلَ دونَ رَجائه وَمُؤمِّلٍ ذَهَبَتْ بِهِ الآمالُ

ننفذ من خلال البيت السابق إلى سؤال: هل الجن تقول الشعر؟ سؤال حاول علماء الأدب والبلاغة والنقد الإجابة عنه قديما، وقد أفرد له أبو زيد القرشي بابا في كتابه (جمهرة أشعار العرب) وحكى حكايات عن شعر الجن وشعرائهم وعلاقتهم بشعراء الإنس ما يذهل العقول فهي أشبه بالأساطير، روى فيها العجب العجاب، ولن أستطيع في هذه العجالة أن أذكر كل ما قاله، ولكن سأكتفي بذكر نموذج من ذلك أو نموذجين قال أبو زيد القرشي: أخبرني المفضل عن أبيه عن جده قال: أخبرني العلاء بن ميمون الآمدي عن أبيه قال: ركبت بحر الخزر أريد ناجورا حتى إذا ما كنت منها غير بعيد لجج مركبنا، فاستاقته ريح الشمال شهراً في اللجة، ثم انكسر بنا، فوقعت أنا ورجلٌ من قريشٍ إلى جزيرة في البحر ليس بها أنيس، فجعلنا نطوف، ونطمع في النجاة إذ أشرفنا على هوةٍ، وإذا بشيخٍ مستندٍ إلى شجرة عظيمة، فلما رآنا تحشحش، وأناف إلينا، ففزعنا منه، ثم دنونا منه، وقلنا: السلام عليك أيها الشيخ! قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فأنسنا به، فقال: ما خطبكما؟ فأخبرناه، فضحك وقال: ما وطىء هذا الموضع أحدٌ من ولد آدم قط، فمن أنتما؟ قلنا: من العرب! قال: بأبي وأمي العرب؛ فمن أيها؟ قلت: أما أنا فرجل من خزاعة، وأما صاحبي فمن قريش. قال: بأبي قريش وأحمدها! ثم قال: يا أخا خزاعة هل تدري من القائل: الطويل:

كأنْ لم يَكُنْ بينَ الحَجُون إلى أَنِيْسٌ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سامر
بلى! نَحْنُ كنَّا أَهلَها، فأبادَنا صُرُوفُ اللّيالي والجُدُودُ العَواثِرُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قلت: نعم! ذلك الحرث بن مضاض الجرهمي. قال: ذلك مؤديها، وأنا قائلها في الحرب التي كانت بينكم، معشر خزاعة، وبين جرهم. يا أخا قريش! أولد عبد المطلب بن هاشم؟ قلت: أين يذهب بك، رحمك الله! فربا وعظم وقال: أرى زماناً قد تقارب إبانه، أفولد ابنه عبد الله؟ قلنا: وأين يذهب بك؟ إنك لتسألنا مسألة من كان في الموتى. قال: فتزايد ثم قال: فابنه محمد الهادي؟ قلت: هيهات! مات رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منذ أربعين سنة! قال: فشهق حتى ظننا أن نفسه قد خرجت، وانخفض حتى صار كالفرخ، وأنشأ يقول الكامل:

ولَرُبَّ راج حِيْلَ دونَ رَجائهِ وَمُؤمِّلٍ ذَهَبَتْ بِهِ الآمالُ

ثم جعل ينوح ويبكي حتى بل دمعه لحيته، فبكينا لبكائه، ثم قال: ويحكما! فمن ولي الأمر بعده؟ قلنا: أبو بكر الصديق، وهو رجل من خير أصحابه، قال: ثم من؟ قلنا: عمر بن الخطاب، قال: أفمن قومه؟ قلنا: نعم. قال: أما إن العرب لا تزال بخيرٍ ما فعلت ذلك. قلنا: أيها الشيخ قد سألتنا فأخبرناك، فأخبرنا من أنت وما شأنك؟ فقال: أنا السفاح بن الرقراق الجني لم أزل مؤمناً بالله وبرسله ومصدقاً، وكنت أعرف التوراة والإنجيل، وكنت أرجو أن أرى محمداً، صلى الله عليه وسلم، فلما تفرقت الجن وأطلقت الطوالق المقيدة من وقت سليمان، عليه السلام، اختبأت نفسي في هذه الجزيرة لعبادة الله تعالى وتوحيده وانتظار نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وآليت على نفسي أن لا أبراح ههنا حتى أسمع بخروجه، ولقد تقاصرت أعمار الآدميين، وإنما صرت فيها منذ أربعمائة سنةٍ، وعبد منافٍ إذ ذاك غلامٌ يفعةٌ ما ظننت أنه ولد له ولد، وذلك أنا نجد علم الأحداث، ولا يعلم الآجال إلا الله تعالى، والخير بيده، وأما أنتما أيها الرجلان، فبينكما وبين الآدميين من الغامر مسيرة أكثر من سنة، ولكن خذا هذا العود، فاكتفلا به كالدابة إذا نام الناس، فإنه يؤديكما إلى بلدكما، واقرئا محمداً مني السلام، فإني طامع بجوار قبره. قال: ففعلنا ما أمرنا به، فأصبحنا في مصلى آمد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويأتي أبو زيد بالحادثة تلو الأخرى ليعضد ما يقول به من أمر العلاقة بين شعراء الجن والإنس وأن كل شاعر من الإنس يقابله شاعر من الجن يوحي إليه .مما يدعنا نتساءل هل الشعر إيحاء من الشياطين والجن ؟ أم هو عملية إبداع فني في لحظة بالغة التعقيد لا يُدرك كنهها ، وقد حاول علماء النفس تفسير عملية الخلق الفني وخاصة إنتاج النص الشعري، ولكنهم عجزوا عن ذلك فهي حالة يصعب إدراكها والإحاطة بكنهها وكينونتها ، وإذا كان إدراك تفسيرها يصعب في حالة الإنس فكيف بها عند الجن ؟ ويستطرد أبوزيد القرشي ، فيقول: "ويشيد هذه الأحاديث عندنا، في الجن وأخبارها وقولها الشعر على ألسن العرب، ما حدثنا به المفضل عن أبيه عن جده عن ابن إسحق عن مجاهد عن ابن عباس قال: وفد سواد بن قارب على عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فسلم عليه، فرد عليه السلام، فقال عمر: يا سواد! قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: ما بقي من كهانتك؟ فغضب وامتلأ سحره ثم قال: يا أمير المؤمنين! ما أظنك استقبلت بهذا الكلام غيري؛ فلما رأى عمر الكراهية في وجهه قال: يا سواد! إن الذي كنا عليه من عبادة الأوثان أعظم من الكهانة، فحدثني بحديثٍ كنت أشتهي أن أسمعه منك! قال: نعم يا أمير المؤمنين! بينما أنا في إبلي بالسراة، وكان لي نجي من الجن، إذ أتاني في ليلة، وأنا كالنائم، فركضني برجله، ثم قال: قم يا سواد، فقد ظهر بتهامة نبيٌّ يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم. قلت: تنح عني، فإني ناعسٌ! فولى عني، وهو يقول: السريع :

عَجِبْتُ للجِنِّ وتخبارها وشدِّها العِيسَ بأَكْوارها
تَهوي إلى مكّةَ تَبغي الهُدَى ما مُؤْمِنُو الجِنِّ كَكُفّارها
فارحَلْ إلى الصّفوَةِ من هاشِمٍ بَينَ روابيها وأحْجارِها

ثم لما كان في الليلة الثانية أتاني فقال مثل ذلك القول، فقلت: تنح عني، فإني ناعسٌ! فولى عني، وهو يقول:

عَجِبتُ للجِنّ وتَطْرابها ورَحْلِها العيسَ بأقتابِها
تَهوي إلى مكَّةَ تَبغي الهُدَى ما مُؤمنو الجنِّ كَكُذّابِها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فارحلْ إلى الصّفوَةِ من هاشِمٍ لَيسَ قُدَاماها كأَذنابِها

ثم أتاني في الليلة الثالثة، فقال مثل ذلك، فقلت: إني ناعسٌ، فولى عني، وهو يقول:

عَجِبتُ للجنّ وإيجاسِها وشَدِّها العيس بأَحْلاسِها
تَهوي إلى مَكَّةَ تَبغي الهُدى ما مُؤْمنو الجنِّ كأَرْجاسِها
فارْحَلْ إلى الصّفوَةِ من هاشِمٍ واسْمُ بعَينَيكَ إلى رأْسِها

قال سواد: فلما أصبحت يا أمير المؤمنين، أرسلت لناقة من إبلي، فشددت عليها، وأتيت النبي، صلى الله عليه وسلم، فأسلمت، وبايعت، وأنشأت أقول الطويل:

أَتاني نَجِيِّي بَعْدَ هَدْء وَرَقْدَة ولم يَكُ فيما قَدْ عَهِدْتُ بِكاذِبِ
ثلاثَ لَيالٍ قوْلُه كلَّ لَيلَةٍ أتاكَ رسولٌ من لؤيِّ بن غالبِ
فَشَمَّرْتُ عَنْ ذيلي الإزارَ، وَأَرْقَلَتْ بيَ الدِّعلبُ الوجناءُ عَبْرَ السّباسبِ
فأشهَدُ أنَّ اللَّهَ لا رَبَّ غيرَه وأنَّكَ مَأْمونٌ على كلِّ غائِبِ
وأنّكَ أدنَى المُرسَلِينَ وَسيلَةً إلى اللَّهِ، يا ابنَ الأكرَمِينَ
فَمُرْني بما أَحْبَبْتَ، يا خيرَ مُرْسَلٍ وإنْ كان فيما قلتُ شِيْبُ الذّوائبِ
وكنْ لي شفيعاً يومَ لا ذُو شَفاعَةٍ سِوَاكَ، بِمُغْنٍ عن سَوادِ بن قارِبِ

وورد في سيرة ابن هشام ما يؤكد قول الجن للشعر: قال ابن إسحاق فحدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا أين أبوك يا بنت أبي بكر قالت قلت لا أدري والله أين أبي قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي.قالت ثم انصرفوا فمكثنا ثلاث ليال وما ندري أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنو كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يقول الزمخشري في كتابة "ربيع الأبرار ونصوص الأخبار" : ورأيت للأعاريب من الأعاجيب في باب الجن ما لا يوصف؛ ويقولون من الجن جنس صورته عل نصف صورة الإنسان، واسمه شق، يعرض للمسافر إذا كان وحده فربما أهلكه. ويزعمون أن علقمة بن صفوان لقيه، فتضاربا فخرا ميتين، وأن علقمة وحرب بن أمية من قتلى الجن. قالوا وقالت الجن:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

قالوا: والدليل على أنه من شعر الجن أن أحداً لا يقدر أن ينشده ثلاث مرات متصلة من غير أن يتتعتع، ويقدر على تكرار أشق بيت من أبيات الإنس عشر مرات من غير تتعتع. وقالوا: قتلت الجن سعد بن عبادة بن دليم وسمعوا الهاتف يقول:

قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
رميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده

قول العرب عبارة " هو أشعر الجن والإنس" لمن يبرع في الشعر لا أعتقد أن هذه العبارة قيلت من فراغ وهي تدل على قول الجن للشعر فقد جرت على لسان كبار الشعراء والأدباء وإليكم بعض النماذج لورودها، جاء في الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني: حدثنا محمد بن العباس اليزيدي إملاء قال حدثني عمي الفضل بن محمد قال حدثني موسى بن صالح الشهرزوري قال: أتيت سلما الخاسر فقلت له: أنشدني لنفسك. قال: ولكن أنشدك لأشعر الجن والإنس، لأبي العتاهية، ثم أنشدني قوله:

سكن يبقى له سكن ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار يخبرنا ببلاها ناطق لسن
دار سوء لم يدم فرح لامرئٍ فيها ولا حزن
في سبيل الله أنفسنا كلتا بالموت مرتهن
كل نفس عند ميتتها حظها من مالها الكفن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

وهذه قصة مشهورة عند النقاد القدماء وردت في كثير من المصادر منها كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، وهو يتحدث عن الشاعرة المخضرمة الخنساء وشاهدنا فيها أيضا ورود عبارة "أشعر الجن والإنس" مما يدل على أن العرب ونقاد الشعر خاصة لهم معرفة بشعراء الجن وأشعارهم ، يقول: "وهي الجاهلية كانت تقول الشعر في زمن النابغة الذبياني، وكان النابغة تضرب له قبةٌ حمراء من أدمٍ بسوق عكاظٍ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فأنشده الأعشى أبو بصيرٍ، ثم أنشده حسان بن ثابت، ثم الشعراء، ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته، فقال لها النابغة: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقال حسان:

والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك! فقبض النابغة على يده، ثم قال: يا بن أخي إنك لا تحسن أن تقول مثل قولي:

فإنَّكَ كاللَّيْلِ الَّذِي هو مُدْركي وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأَى عَنْكَ واسِعُ

فما رأيك عزيزي القارئ فيما أوردناه عن هذا البيت من شعر الجن وأقوال علماء الأدب والنقد والبلاغة والسير القدماء في هذا الشأن ، وهل بإمكان النقاد أن يقدموا دراسات نقدية عن شعر الجن باعتباره شعرا موثقا عند مؤرخي الأدب ورواة الشعر أم هي مجرد ترهات لا أصل لها ولا فصل ؟؟؟!!! قال السفاح بن الرقراق الجني:

ولَرُبَّ راج حِيْلَ دونَ رَجائه وَمُؤمِّلٍ ذَهَبَتْ بِهِ الآمالُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوقفة الثامنة

مع أبي تمام

قال أبو تمام:

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ طُويتْ أَتاحَ لها لِسَانَ حَسُود

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"،و"دبّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء..."والحسد داء قديم كما قال عمر بن أبي ربيعة:"وقديما كان في الناس الحسد"، نقف بين يدي البيت أعلاه للشاعر أبي تمام في هذا الصدد ، ونتتبع تعليقات بعض النقاد والعلماء من حيث معنى البيت وما فيه من عبرة وحكمة، وصور بلاغية، قال عبد العزيز الجرجاني في كتابه:(الوساطة بين المتنبي وخصومه) معلقاً عليه ، وشارحاً لمعناه: "صدق والله وأحسن! كم من فضيلة لو لم تستَتِرْها المحاسد لم تبرحْ في الصدور كامنة، ومنقبةٍ لو لم تُزْعِجْها المنافسة لبقيت على حالها ساكنة! لكنها برزتْ فتناولتْها ألسنُ الحسَّد تجلوها، وهي تظن أنها تمحوها، وتشهَرُها وهي تحاول أن تستُرَها؛ حتى عثَر بها مَن يعرف حقها، واهتدى إليها مَنْ هو أولى بها، فظهرت على لسانه في أحسن معرِض، واكتست من فضله أزينَ ملبس؛ فعادت بعد الخمول نابهة، وبعد الذبول ناضرة، وتمكنت من برِّ والدها فنوّهت بذكره، وقدَرت على قضاء حقِّ صاحبها فرفعت من قَدْره (وعَسى أن تكْرَهوا شيْئاً وهُوَ خيرٌ لكُم).

قال ابن المقفع: "أقل ما لتارك الحسد في تركه أن يصرف عن نفسه عذاباً ليس بمدركٍ به حظًا ولا غائظ به عدوًا، فإنا لم نر ظالماً أشبه بظلومٍ من الحاسد، طول اسفٍ ومحالفة كآبةٍ وشدة تحرقٍ، ولا يبرح زارياً على نعمة الله ولا يجد لها مزالاً

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويكدر على نفسه ما به من النعمة فلا يجد لها طعماً ولا يزال ساخطا على من لا يترضاه ومتسخطاً لما لن ينال فوقه، فهو منغص المعيشة دائم السخطة محروم الطلبة، لا بما قسم له يقنع ولا على ما لم يقسم له يغلب، والمحسود يتقلب في فضل الله مباشراً للسرور منتفعاً به ممهلاً فيه إلى مدة ولا يقدر الناس لها على قطعٍ وانتقاصٍ"

ومن أقوال الراغب الأصفهاني في كتابه (محاضرات الأدباء): "الحسد يظهر فضل المحسود" وجاء في شرح ديوان الحماسة المرزوقي "وحدثني أبو عبد الله حمزة بن الحسن قال: سمعت أبا الحسن علي بن مهدي الكسروي يقول: أنا قد تتبعت من دواوين الشعراء قديمهم ومحدثهم فوجدت أبا تمامٍ الطائي متفرداً بمعنى قوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسان حسود
لَولا اِشتِعالُ النارِ فيما جاوَرَت ما كانَ يُعرَفُ طيبُ عَرفِ العودِ

تحدث عبد القاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة في علم البيان) في (فصل مواقع التمثيل وتأثيره) عن فضل التمثيل في البيت الثاني وتقويته لمعنى البيت الأول قائلاً "واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفاً، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفاً... وانظر كيف يزيد شرفه عندك، وهكذا فتأمّل بيت أبي تمام:

وإذا أراد اللّهُ نَشْرَ فَضِيلةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لِسانَ حَسُودِ

مقطوعاً عن البيت الذي يليه، والتَّمثيل الذي يؤدّيه، واستقص في تعرُّف قيمته، على وضوح معناه وحُسن بِزّته، ثم أتبِعه إياه: لَوْلاَ اشتِعَالُ النَّارِ فيما جاورَتْ مَا كان يُعرَف طِيبُ عَرْفِ العُودِ وانظر هل نَشَر المعنى تمام حُلّته، وأظهر المكنون من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حُسنه، وزِينته، وعَطَّرك بعَرْف عوده، وأراك النضرة في عوده، وطلع عليك من طلع سُعوده، واستكمل فَضْلَه في النفس "

وقال اليوسي معلقاً على بيت أبي تمام : في كتابه (المحاضرات في الأدب واللغة) "واعلم أن هذا الشعر ونحوه يخيل استحسان الحاسد واستحباب وجوده بل كثرته، ولم يزل الناس يكرهونه ويتخوفون منه، ويستعيذون من شره، وقال تعالى (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) فقد يقف القاصر على هذا فيحار، ولا يدري ما يختار، وفصل القضية في ذلك أن وجود الحاسد، كما مر، دليل على وجود الفضل، وذلك لما عرف أن الحسد هو حب زوال ما ظهر على الغير من خير، إما ديني أو دنيوي، حسي أو معنوي، عاجل أو آجل، حقي أو ادعائي فلزم من وجود الحسد وجود الخير.ثم إن الحاسد إذا أحب زوال الخير فهو لا محالة يسعى في زواله، أو في إلحاق مضرة تذهب بها طلاوة ذلك الخير، ما لم يحجزه حاجز، وهذه مضرة تتوقع من الحاسد، فالحاسد خبيث شرير مضر. إذا علم هذا فمن استحب وجود الحاسد فلم يحبه لذاته، بل أحب ما يقارنه من الخير، لا من حيث إنه محسود عليه به من حيث كونه خيراً، وإلاّ فيود الإنسان أن لو أعطي الخير وأعفي من الحساد، فإن ذلك أهنأ لعيشه، وأروح لقلبه، وأبعد له عن الأذاية والهول، ولم تَجْرِ حكمة الله تعالى غالباً بذلك، إذ نعم الدنيا مشوبة بالنقم، وصفوها مشوب بكدر، فأمام كل عين قذى، وعلى كل خير أذى، فلما لم يكن بد من وجود الحاسد غالبا، كان وجوده مبشراً بالخير معلماً بالنعمة، فيفرح بوجوده لذلك لا لذاته.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخاتمة

تم بحمد الله الجزء الأول من كتاب وقفات على أبواب القوافي، طوفنا فيه مع أبيات شعرية لشعراء من مختلف العصور التاريخية، استعرضنا أراء النقاد، ورؤية العلماء، ووقفنا على أوجه اختلافهم حولها، وسبرنا أغوارها، ووقفنا على جوانب شتى وزوايا متعددة، منها ما يتعلق بالدرس اللغوي والنحوي، والبلاغي، ومنها ما يتعلق بالنواحي الجمالية.

وستكون لنا وقفات مع أبيات أخرى في الأجزاء التالية نغوص من خلالها في أعماق قضايا اللغة العربية، قديما وحديثا نتناولها في أبيات من الشعر القديم أو الحديث،نطرح من خلالها آراء النقاد وعلماء اللغة والبلاغة القدماء والمعاصرين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفهرس

الإهداء.....

المقدمة.....

الوقفة الأولى:مع أبي تمام.....

الوقفة الثانية: مع حسان بن ثابت.....

الوقفة الثالثة:مع زهير بن أبي سلمى.....

الوقفة الرابعة:مع ابن قيس الرقيات.....

الوقفة الخامسة:مع التجاني يوسف بشير.....

الوقفة السادسة :مع لبيد بن ربيعة.....

الوقفة السابعة:مع السفاح بن الرقراق الجني.....

الوقفة الثامنة:مع أبي تمام.....

الخاتمة.....

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الكاتب في سطور:

- ولد في السودان، بمدينة المسعودية، 1964م.
- ثلاثون عاماً خبرة في مجال التعليم في عدد من الدول العربية.
- أستاذ مشارك، تخصص الأدب والنقد.
- كلية التربية جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم بالسودان.
- كلية اللغة العربية، جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم.
- كلية الآداب، جامعة الملك فيصل، بالمملكة العربية السعودية.
- أستاذ الدراسات العليا بالجامعتين.
- عمل أستاذاً بجامعة الجزيرة بالسودان.
- عميد مكلف كلية اللغة العربية.
- رئيس قسم الأدب والنقد والبلاغة.
- رئيس تحرير مجلة كلية اللغة العربية المحكمة.
- عضو مجلس جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم.
- له العشرات من البحوث العلمية المنشورة في المجلات العلمية المحكمة.
- له الكثير من المقالات المنشورة في الصحافة السودانية، والمجلات العالمية المتخصصة في اللغة العربية.
- أشرف على الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية العالمية.

هذا الكتاب منشور في